آسيا الصغرى وايران

لم يشمل الشرق الادنى ، باستثناء مصر وبلاد ما بين النهرين ، مساحات شاسعة من الاراضي الخصبة ، إذ لم توجد فيه انهار كبيرة ذات فيضانات رسوبية . ولم تستهو هذه الاقطار بني آدم . وعندما كانوا يجتازونها لم يغرهم شيء للاستقرار فيها وتكوين جماعات مستديمه . وهكذا لم تظهر فيها حضارات متطورة إلا في زمن لاحق جداً . لا بل هناك عوامل كثيرة اخرى لهذا الواقع سببتها على مدى واسع قلة عطاء الارض . ولم تبلغ قط اي من هذه الحضارات عظمة وقوة ومدى حضارتي مصر وبلاد الرافدين . ولم تجد اي منها مهداً فسيحاً ينتج خيرات مماثلة لخيرات هذين القطرين . وهكذا فانها لم تلد بصورة عفوية كما غدت الحال هناك ، ولم تعبر بشكل نقي عن الفضائل والميول الخاصة بشعب معين . فبرزت من ثم هذه الحضارات مركبة العناصر ومتشعبة الاصول لانها نشأت عن احتكاكات ولدتها سيول الهجرات او المبادلات التجارية . وغدت هذه الحضارات اكثر ميوعة واقل ديمومة . وقد شابت كلا منها نواقص كثيرة ، ولم تملك مجتمعة او منفردة الامكانيات المادية او المعنوية او الوقت للتغلب عليها . ولم تترك هذه الحضارات للخلف في الزمان والمكان إلا إرثاً اقل عظمة وكمالا إذ غدت هي نفسها في كل المجالات دون الحضارتين اللتين سلف ذكرهما شروقاً ونبوغاً . ونتيجة لهذه الحقيقة خلفت آثاراً دون آثارهما : ولا نزال الى يومنا هذا نستكشف جوهرها جاهلين مقوماتها وذلك مع ما حققته العلوم الاثرية واللغوية من اكتشافات باهرة .

وتتصل بعض هذه الحضارات بدول شحذت همتها القوى لتدعيم مركزها الداخلي او توسيع مداها الخارجي لتحافظ على كيانها ، وذلك على غرار ما جرى لزميلتيها في مصر وبلاد الرافدين . وهكذا نجد انفسنا مضطرين لجمعها معاً هنا وان اختلفت عناصرها واهدافها . واستناداً الى النجاح الكثير او القليل الذي لاقته فاننا نصنفها مع الحضارات التي يمكننا ان نطلق عليها لقب « الحضارات الامبراطورية » ، ولكن شوائبها تقلل من مدى اهميتها الجوهري

والنسبي . ومع هذا تنفصل واحدة منها عن المجموعة وان كانت تشارك سائر زميلاتهـــا بتلك السمات . ومع انها كانت الاخيرة من حيث زمن ظهورها فانها فرضت مع ذلك سيادتها السياسية على ابعد مدى ، حتى انها اخضعت لسيطرتها مصر وبلاد الرافدين . انهـــا الحضارة الايرانية او بالاحرى الفارسية .

الفصل الأول

الحضارة الحثية

جرت العادة على تسمية شعوب آسية الصغرى القديمة « الشعوب الأسيانية » . وتدل هذه التسمية على جهلنا حقيقة تلك الامم ، اذ يتعذر علينا دمجها مع الساميين او مع الهندو — الاوروبيين . ولا اهمية ان ابتكرت هذه الشعوب حضارة زاهرة ، كما فعل السومريون الذين لا يزال اصلهم العرقي مجهولا . ولم يحصل هذا إلا بعد ان توطد فيهم أثر سكان بلاد الرافدين والهندو — الاوروبيين . عندئذ فقط ، وابتداء من اوائل الالف الثاني تقريباً ، ظهرت دول منتظمة كالامبراطورية الحثية ومملكة ميتانّي الحورية.

الحضارات الحثية والحورية : الخطوط الكبرى

يصعب تعيين حدود هذه الدولة او تلك لانّها كثيراً ما تغيرت ، واتخذت دوماً الامبراطورية الحثية مركزها في الجزء غير الايجي من الانجاد الاناضولية : وغدت عاصمتها مدينة خطوش (بوغاز — كي الحالية) الواقعة داخل المنطقة التي يكونها منعطف نهر كيزيل — إرماك ، الذي عرفه اليونان باسم «هاليس». ولكن اتسعت هذه الامبراطورية كثيراً نحو الجنوب — الشرقي حتى امتدت الى بابل في بعض اطوارها . ونجد الحوريين ، في أزمنة مختلفة ، في كل من نواحي بلاد الرافدين الشمالية المتدة من جبال زغروس حتى شواطىء البحر الابيض المتوسط السورية . ويطلق اسم الميتاني خاصة على منطقة منعطف الفرات حيث كان لمصريّي الامبراطورية الجديدة علاقات كبرى مع الحوريين : وفي هذه الحقبة وتلك المنطقة فقط شيد الحوريون دولة عرفت بعض الاهمية والاستمرار . ولكن منذ السلالة التاسعة عشرة خضعوا لسلطة الحثيين وانقرضوا تماماً تقريباً . لذا يصعب علينا من ثم التفريق بين حضارتهم وحضارة الحثيين التي قد تتوفر لنا فعلاً عناصر معرفتها بعض الشيء .

واساس حضارة الشعبين هو أسياني . وبدأت الاحتكاكات مع بلاد الرافدين تدخل الى هذا الشعب او ذاك بعض العناصر الثقافية ، خاصة استعمال العلامات المسمارية للكتابة ، ويرتقي هذا الواقع الى اواخر الالف الثالث . وقد اتخذ هذا التغلغل مدى واسعاً كما يشهد بذلك وجود

جماعات من التجار الاشوريين في بلاد كبادوكية . ولكن في هـذه الفترة أتت بعض العناصر الهندو – الاوروبية – من تراقية دون شك – الى بلاد الاناضول ، فتلاقت مع حثيّي المناطق الشرقية وحوريي المناطق الشمالية الشرقية . وتزايدت هذه الجماعات مع الزمن حتى انتهى بها الامر الى تكوين فئـة ارستوقراطية حاكمة ، خاصة وقدجلبت معها الحصان الذي حقق لها استعماله تفوقاً حربيـاً لا يجادل فيه . واستساغت هذه القوى لنفسها اذ ذاك شن غزوات جريئة ، لا بـل تشييد امبراطورية حثية . وفي القرنين الرابع عشر والثالث عشر تفوقت هذه الامبراطورية على دولتي البابليين والاشوريين المنفصلتين واقامت توازنـاً للقوى مع مصر. وفي هـذه الفترة اوجدت العلاقات الدبلوماسية والحربية احتكاكات جديدة مع حضارة بلاد ما بين النهرين وعرّفت الحضارة المصرية التي كانت قبلا بعيدة جداً .

وبعد ذلك حصل الجزر ثم التضعضع واخيراً الانقراض السريع او التدريجي . ولكن بقيت لنا نصوص ونقوش تشهد بهذه العظمة القصيرة العمر . ولم تفسر بعد كل هذه النصوص ، وان كان قد اميط اللثام منذ ثلاثين سنة عن سر بعضها التي كتبت بالخط المسماري فلا يزال العلماء يتعثرون لحل رموز تلك التي كتبت بالخط الهيروغليفي . ولكن من الممكن مع هذا ان نأتي على ذكر حضارة اظهرت اللمحة الخاطفة التي سبقت معالمها المتشعبة الاصول .

الدولة

تستند الدولة الى أسس اقل متانة وتنظيماً مما هي عليه في مصر وبلاد الرافدين . ان هناك بالتأكيد عرى وثيقة تربط السلطة الملكية بالآلهة . انهم يستجدون نبوءات عرّافي الآلهة في الشؤون العامة ، ويمثلون الآلهة وهي تقبل الملك والملكة . ويصبو الملك نحو تأليه نفسه لرغبته في التشبه بفرعون مصر : فهو يتخذ لنفسه حوالي منتصف القرن الرابع عشر ، لقب « شمسي » ، ويصبح بعد موته موضوع عبادة ، ويتقبل التقادم الغذائيـة المخصصة للآلهة . ولكن لم تتبلور قط عملياً هذه المنزلة الدينية بسلطة ملكية مطلقة .

ونجد الى جانب الملك جهازاً يرجع أساسه الى اصـل هندو – اوروبي : اعني المجلس الذي يؤلفه افراد من الطبقة الحاكمة . ويقرر هـذا المجلس قيام ملك جديد ، ويحلف بين يديـه يمين الوفاء ولكنه يتقبل من العاهل عهداً مماثلاً . ويسعى الملك لتدبير خلافته على العرش وهو بعـد على قيد الحياة . وتوصلاً لهذه الغاية يقدم ابنه للمجلس ويستحصل مسبقاً من هذه الهيئة على يمين الطاعة . ومع هذه الاحتياطات فقد اثار هذا النظام اضطرابات سلالية : وقد حصل منها مـا اضعف الدولة الحثية . وتعبر عن تفوق هذا المجلس المدني امتيازاته القضائية : إذ هو يفصـل بالدعاوى التي تساق على اعضائه وعلى اقرباء الملك .

وتستثنى اجزاء شاسعـة من الدولة من ادارة الملك المباشرة . ويستثمر الملك مباشرة بعض الاراضي ، وهو يتسلم عائدات ويفرض اعمـال السخرة. ولكن عليه ان يحسب حسابا لجماعة الهياكل التي تتمتع بالحصانة ، وللكاهن الاعظم ، في الاوسـاط الدينية الكبرى ، الذي يتمتع

ايضا بسلطات مدنية وهناك ايضا الامراء الاقطاعيون الاتباع ، يعقد معهم الملك معاهدات تضمن لذريتهم السيطرة لقاء طاعتهم . ويوجد اخيرا النبلاء الذين ، في اوقات الحرب ، يجمعون فرق الجنود من سكان اراضيهم ويؤمنون قيادتها ، ويطالبون من ثم بجزء من الغنائم . وللملك جنوده الخصوصيون ، ومنهم المرتزقة ، ومنهم المواطنون الذين يهبهم إقطاعات من الارض ، اذ تجري التعبئة بصورة بطيئة ويجب الاحتفاظ من ثم ، على تخوم الدولة المعرضة للخطر ، بحاميات مستديمة في الحصون حيث يوجد حكام يمثلون الملك .

النصوص القانونية وتعاليمها

لدينا مجموعتان من القوانين الحثية وضعت على غرار بلاد ما بين النهرين واوجدت الحلول لمشاكل مماثلة . نملك ايضا عقودا تشريعية حورية. ولم يأت النظام التشريعي بشيء جديد ، وقد تأثر بحضارات أودية دجلة والفرات .

ويُظهر لنا كل هذا مجتمعا لا يختلف اختلافا اساسيا عن مجتمع بلاد الرافدين من حيث نظام الاسرة والمهر والطلاق والتبني . ومع هذا لا بد من الاشارة الى اختلافات هامة. ومما يجب ملاحظته في اول الامر هو ان وجود طبقة حاكمة وحربية ، شبه اقطاعية ، يفرض تعاونا اجتماعيا يعادل على ما يبدو تفاوتاً عرقيا . ويدعى افراد الحرس الملكي عند الحوريين «ماريانى» وتشتق هذه الكلمة من كلمة ماريا الهندو-اوروبية التي تعني «البطل» ويتحكم هؤلاء المحاربون بعَمَلة ممتلكاتهم ، ومعظم هؤلاء من «المسبيين» ذوي نظام اجتماعي أقل شأنا . ونلاحظ ثانيا بان القانون الجزائي هنا هو اخف وطأة من قانون بلاد ما بين النهرين ، وهو يعتمد اكثر على مبدإ الغرامة او التعويض ، الذي يتخذ له مستوى قاسيا جدا . وهكذا فلا تعاقب قط السرقة عند الحوريين بالموت ، ولكن قد يبلغ التعويض ما يوازي ٢٤ مرة قيمة الشيء المفقود . والعقوبات الجسدية هي اقل عددا واكثر لينا . ويزداد هذا الفرق ، الملموس منذ القدم ، قوة مع التطور والزمن .

وتستفيد الحياة الاقتصادية من معطيات زميلتها في بلاد الرافدين ويمارس القوم اعمال التبادل والقروض حسب نظم مختلفة ، مع وجود مبادىء الكفالة والرهن الخ . وعلى ما يظهر نشطت جدا التجارة في مختلف مرافقها . واستحال عكس ذلك في مناطق اعدها وضعها الجغرافي لتلعب دور الوسيط بين سواحل البحر الابيض المتوسط من جهة وبلاد ما بين النهرين وايران من جهة اخرى . وغدا الحديد خاصة مادة تصدير كبير نحو المناطق الشرقية والجنوبية ، وقد استخرجوه من آسيا الصغرى وزاد في استعماله كثيرا الهندو-اوروبيون؛ وكما حدث للقوانين البابلية والاشورية فقد حدد التشريع الحثي الاثمان المفروضة لبيع المنتوجات الزراعية والحيوانات ، وبدلات المثل للخدمات والادوات وفائدة القروض ، ولكن ارتفعت جدا قيمة المعدن الثمين وفائدة القروض ، اقله في الواقع.

غدا الحثيون بناة عظماء . ويظهر موقع عاصمتهم آثار أسوارهـا ، وآثار مبان اخرى مهمة، ولكن يصعب تحديدها. ووجدوا، ايضا في المدن المقدسة آثار الهياكل. واعتمد القوم كثيرا على النقش . وقد وجدوا ، علاوة على نقوش الارواح الحارسة التي تحمي الابواب كما جرت العادة عند الاشوريين ، نقوشا على الصخور . وهي تبدو عظيمـــة ولكنها غير كاملة ، تمثل آلهة منفردة او مواكب دينية . ويظهر لنا اشهرها مجموعة من اربعين ذكراً تتقدم نحو صف من عشرين انثى او اكثر : وقد نظم الاشخـــاص في كلا الصفين حسب الدرجات ؛ ففي الامام نجد الآلهة الكبرى ، تليها الآلهة الثانوية ، ثم يتبع رجـال الكهنوت . ولهذه النقوش الكبرى فائدة اذ تقدم لنا معلومات عن الديانة ، بالاضافة الى الدلائل التي تحويها النصوص في هذا المجال .

يحتوي الزون (البانتيون) الحثي على آلهة كثيرة العدد جدا. وبعد ان يعددوا اسماء بعض الآلهة في المعاهدات السياسية يستغيثون « يا آلهة الحثيين الالف»: ويذكرون هذا العدد الاجمالي دون شك للتأكد بانهم لم ينسوا اي إله. ومع هذا يولد هذا العدد الكبير الحيرة. وفعلا اقتبس الحثيون آلهتهم من مختلف الجهات. ولكن لا يعود اكبر عدد من هذه الآلهـة واهمها الى اصل أسيوي ، ونحن غالباً ما نجهل اسم الاله الحثي ، ان لم نقل الحوري، هذا مع العلم بان الهندو — الاوروبيين قد جلبوا معهم بعض آلهتهم كـ«مترا» مثلا ، وبان الحثيين اقتبسوا أيضاً بعض آلهة زون (بانتيون) بلاد الرافدين كإشتار .

ونجد على رأس هذه اللائحة زوجين من الآلهة حيث تتولى الامرأة الصدارة دون شك . انها الإلهة — الشمس ، وبصورة اوضح « شمس أرينّا » وقد اتخذت اسم المدينة ، حيث شيد اشهر معابدها ، ولها حيوانان هما اللبوءة واليمامة ، ورفيقها هو اله العاصفة الذي يصبح بالوقت نفسه ، هنا او هناك اقله ، اله الحرب . ويمثلونه برفقة ثورين وترمز اليه الصاعقة او الفأس او الحربة او مجموعة من الاسلحة . ولكن مع الزمن والتطور تأتي على اوليته إلهـة اخرى ، هي بالاساس ابنة الزوجين المذكورين اعلاه . اننا هذه المرة امام الاله الفتى الشمس الذي يظهرونه لنا دون لحية ، ولا يترددون من جعله عشيق والدته ، عندما يعتبرون هذه الاخيرة إلهة الخصب .

وتتأثر العبادة والكتب الطقسية تأثيراً كلياً بزميلاتها في بلاد ما بين النهرين . فهم يقدمون الذبائح — وقد يقوم غالباً بهذا العمل الملك نفسه — وينظمون المواكب ، كالموكب الذي يظهره النقش الذي اشير اليه اعلاه والذي يمثل إله العاصفة وهو يتقدم نحو الالهة — الشمس . ومـــا الامراض والمصائب إلا قصاص ترسله الآلهة : لذا وجب على المرء ، لتهدئة الآلهة ، ان يتطهر جسدياً ويقـدم الذبائح وينطق بالصلوات والعبارات الطقسية . وللسحر مركز مرموق كما انهم يقبلون على مراقبة النجوم ، وزجر الطير ، والتدقيق بكبد الذبائح ليستدلوا من هذه الطقوس على المستقبل .

استمرار هذه الديانة والتقاليد

لا تستوجب الديانة الحثية الانتباه لكونها تمت الى اصول عده فحسب، بل ايضاً لانها تلقي الانوار على مصادر بعض العبادات والطقوس التي نعثر عليهـــا في امكنة اخرى وازمنة لاحقة .

وسنجد إله العاصفة ، المدعو تيشوب عند الحوريين ، والذي نجهل اسمه الحثي ، في سورية باسم حدد وفي فينيقية باسم بعل . وسيصبح الاله حدد ـ بعل في مدينـــة دوليخه *Dolichè* (بلاد كوماجين *Commagène*) الذي يحتفظ بالثور والفـــأس الإله زوس ـ دوليخانوس *Zeus Dolichènos* ليونانيي العهد الهليني ، ثم الاله جوبتير دوليخانوس *Dolichénus* للرومان ؛ وبهذا الاسم ستمتد عبادته الى كل المقاطعات .

وحسب كل الظواهر فان الإلهة الكبرى التي فقدت بصورة تدريجية صفتهـا الشمسية ليست إلا « الوالدة الكبرى » ، الإلهة الرئيسية لكل آسية الصغرى تقريبـــاً ، « مروضة الحيوانات المفترسة » ، خاصة الاسد . وقد اطلقوا عليها اسماء عدة وعرفت تغييرات كثيرة . فدعتها نصوص فينيقية قديمة باسم كوبابا . وستصبح كيبيبه عند الليديين ، وسيبلة *Cybèle* عنـد اليونان . وستجلبها روما ، منذ أواخر القرن الثالث ق.م. من مدينة بسّينونت في فريجيـــة ، المركز الرئيسي إذ ذاك لعبادتها . وستعرف اتساعاً كبيراً في الامبراطورية الرومانية . ولكن عبادتها الأسيوية ، كانت هذه الإلهة قد أثرت في ديميتير اليونانية ، وذلك قبـــل ان يشعر اليونان بزمن كثير باغراء عبادتها الأسيوية . وسارع الفرس ، منذ ان اتوا الى آسية الصغرى ، ان يساووا بينها وبين إلهتهم انهيتا *Anahita* .

ونجد الاله الابن الفتي في الديانات السامية ؛ وقد عرفه اليونان في فينيقية باسم ادونيس . وبهذه الصفة اجتاز البحر الابيض المتوسط منذ القرن الخامس ق.م. ولكن ستعرفـــه اوروبة ايام الامبراطورية الرومانية باسم أتيس خاصة وقد دُمج مع والدتـــه ـ وهي حبيبته في الوقت نفسه سيبلة .

واخيراً اي تفسير نعطي لوجود بعض التقاليد الدينية التي عرفها الحثيون في مدينة رومـــة وذلك منذ أقدم الازمنة ؟ أحصل الامر عفواً ام كان وليد اعمال نهل مستقـــلة ولكن من معين واحد مشترك عرف مدى اتساعه شوائب غريبة ؟ ففي رومة سعى القوم ايضاً لقراءة المستقبل من خلال كبـــد الذبائح وزجر الطير ؛ واستعمل العرافون العصا المنحنية ، الليتوس *Lituus* التي كان الحثيون يضعونها بين يدي إله الزوبعة والملك الذي يقوم بالخدمة الدينية . ومن غير المشكوك فيه بان رومة عرفت كل هذا من الاتروسكيين *Etrusques* : وبما ان هؤلاء قد اتوا من آسية الصغرى نحو ايطالية ، فلن المحض بانهم وجدوا فيهم الحلقة التي كانت تنقص السلسلة المشدودة .

وعلى كل ، حتى ولو لم نأخذ بهذه النظرية ، فاننا نجد بان الحثيين ، وبصورة ثانوية حوريين ميتاني ، قد لعبوا دوراً هاماً في نشر المعتقدات الدينية . ولم يكتف الحثيون بالمحافظة على الاساس الأسياني واقتباس بعض العناصر من بلاد الرافدين بل سهلوا انتقال كل هذه المعالم الى امكنة اخرى على سواحل البحر المتوسط الشرقية .

الفصل الثاني

الحضارة الليبدية

دخلت الامبراطورية الحثية طور التضعضع حوالي أواخر القرن الثالث عشر، خاصة تحت عامل مجيء جماعات هندو - اوروبية، أتت من الغرب عن طريق المضايق. وعلينا ان ننتظر قروناً عدة لنعثر من جديد في آسية الصغرى على دولة لها بعض القوة ويمكننا معرفتها بعض الشيء.

الفريجيون

ليست هذه حال مملكة او ممالك الفريجيين.

فمنذ القرن الثاني عشر حتى اواخر القرن السابع تدلنا كتابات الملوك الاشوريين على وجود الموشكو *Moushkou* في شرقي آسية الصغرى، وقد ناصبوهم العداء وتحاربوا مرات عدة. ومن الجائز الظن بان خلفاء الحثيين هؤلاء هم من تدعوهم الالياذة بالفريجيين. وان صدقنا الاساطير اليونانية فانهم حالفوا اهالي طروادة. وكانت ملكتهم هيكوب، امرأة بريام، فريجية. وغدا ملوكهم خلفاء غورديأس. وقد اشتق منه اسم عاصمتهم غورديون حيث قطع الاسكندر العقدة «الغوردية». وميداس. واتخذ احد هؤلاء زوجة له امرأة يونانية من الساحل الايجي وقدم لابولون الدلفي العرش الذي كان يجلس عليه للقضاء. ولا نستطيع تفسير هذه الوقائع إلا اذا قاربت بلاد الفريجيين من الغرب اقله البحر الابيض المتوسط، وان هي كانت اقل اتساعاً لجهة الشرق من الامبراطورية الحثية.

وما نستطيع زيادته على هذه الاسطورة او تصحيحه هو امر قليل. فقد اتت زمرة من الفريجيين من بلاد تراقية: وهذا ما تؤكده بعض العلاقات الدينية؛ ولكنهم حصلوا على إرث الاسيويين والحثيين العرقي. ومن الوجهة السياسية لم يكونوا دولة مركزية، إذ لم يكتشفوا قبوراً كبيرة، وهي قبور ملكية دون شك، في غورديون فقط، بل ايضاً في اقطار شرقية، في انقرة مثلاً: وتفسر هذه البعثرة ضعف دورهم الحربي. وقد كانت لهم علاقات تجارية مع

جيرانهم ، ولكن على مدى قليل . وفي الحقيقة غدت الزراعة وتربية المواشي ، وقد امتدحتها الالياذة دون ذكر تفاصيل مميزة ، مصدر ثروتهم الرئيسية . واظهر علم الآثار بانهم تأثروا بتيارات مختلفة في مجال الفن والصناعة الخزفية : فهناك تأثير الحثيين ، وقد عمدوا مثلهم الى النقش على الصخور ؛ وتأثير قبرص التي باعتهم النُحاس التي تصل اجزاء الثوب والاواني ؛ واخيراً تأثير اليونان الذين اخذوا عنهم الالفباء ومبادىء التزيين في القرن السابع .

وهكذا نجد حضارة مختلفة العناصر ولكنها دون نضارة . ولم تتحدث العصور القديمة عن الفريجيين إلا بشأن هيكل بسّينونت من حيث امتدت عبادة سيبلة وأتّيس مع ما يرافقها من ادوات موسيقى صاخبة كالصنوج او « النحاس الفريجي » .

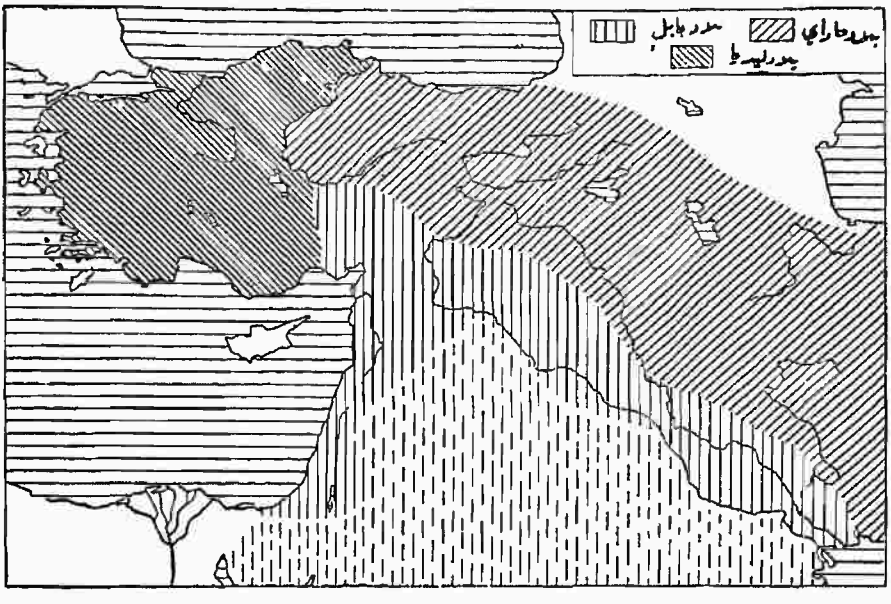

الشكل ١٥ - امبراطوريات آسية الوسطى نحو منتصف القرن الخامس قبل المسيح

المملكة الليدية

تقدم لنا الحضارة الليدية وجهاً آخر مختلفاً .

انشقت عن الاقطار الفريجية المناطق التي ستصبح في غربي آسية الصغرى المملكة الليدية . ولكن لم يظهر هذا الاسم إلا في زمن متأخر : اذ اسكنت الالياذة في هذه المنطقة الميونيين « *Maioniens* » الذين كانوا هم ايضاً حلفاء طروادة . وقد ربطت التقاليد اليونانية تغيير الاسم مع اغتصاب العرش على يد جيجس *Gygès* في اوائل القرن السابع ! وفي الفترة نفسها تشير النصوص الاشورية الى اللودو *Loudou* وملكهم غوغو *Gougou* . ودام حكم السلالة الجديدة ، المدعوة سلالة مرمناد *Mermnades* ، نحو قرن ونصف وذلك حتى الفتح الفارسي . وفي آخر

عهدها سيطرت على مسافات شاسعة :فقد بسطت نفوذها على آسية الصغرى الغربية بكاملها حتى نهر الهاليس . وخضعت لحمايتها ايضاً السواحل الايجية بما فيها المدن اليونانية . وقد احاطت — ولا تزال — شهرة غنى استثنائي باسم آخر ملوكها كريسوس *Crésus* . وغدت عاصمته سرديس *Sardes* مركز حضارة زاهية .

منذ وصول الهندو — اوروبيين غدت تسيطر على البلاد طبقة من النبلاء لما تملكه من اراض. وكانت تقدم للملك « رفقاء » . وقد ملأ الوزير جيجس هذا المنصب وغدا خاتمه الشهير الختم الملكي. ولم يأت « المرمناد » على هذه الفئة الارستوقراطية . وبعد هذه السلالة نجد النبلاء يعيشون في ممتلكاتهم في بيوت ريفية دعاها اليونان « الابراج » وهي تشبه الحصون . وكانوا بعض المرار اغنياء جداً مما ادهش الملك الفارسي أحشويروش او(سرخس *Xerxès Asrcisus*) . وحققت السلطة الملكية ، على زمن خلفاء جيجس ، تقدماً محسوساً ، حتى ان التقاليد تظهر لنا الملوك مطلقي الصلاحية ، لا بل تعتبرهم طغاة حقيقيين . ولم يراعوا خاطر احد إذ كانوا خلفاء مغتصب يواجهون الدسائس والفتن ويلاقون المنافسة عند شغور العرش : وكان والد كريسوس يمزق ثياب النبلاء ويبصق في وجههم إذلالا واحتقاراً . وامات كريسوس اخاه بين اسنان آلة تمشيط الصوف لانه سعى الى العرش .

الحياة الاقتصادية

لم تكن ثروة الملك اسطورة ، وقد اثبتتها هبات منقطعة النظير في بلاد اليونان . وتولد هذا الغنى الفادح عن استثمار املاك الدولة والضرائب التي ادتها الجماعات المحلية . وعلاوة على ذلك كثر المعدن الثمين وقد جمعوه على شكل وريقات من رمال الباكتول، نهر سرديس ، كما استخرجوه من مناجم بعض الجبال . وكان يوجد ايضاً ضرائب على التجارة . وقد يطرحون هذا السؤال : هل ازدهرت التجارة مع الشرق البعيد ؟ ان حفريات سرديس اظهرت لنا اشياء قليلة جداً اتت من تلك النواحي ، ولعلهم يغالون كثيراً في وصف تجارة القوافل التي كانت تتجول على الطريق الكبيرة التي تخترق آسية الصغرى، والتي ستدعى فيما بعد «الطريق الملكي» ايام الفرس. ومع هذا يؤكد هيرودوتس بان الليديين غدوا الكابلي *Kapèloi* الاولين ، اعني الذين يبيعون بالتفريق ويديرون الخانات (اي الفنادق) . وعلى كل لا يشك احد في كثرة التبادل التجاري مع مدن الساحل اليونانية التي تقود اليها الاودية النهرية والتي غدت صلة الوصل البحرية مع الغرب .

وقد دعا دون شك هذا التبادل لاختراع النقود المعدنية التي وضعت حداً لمراقبة نوع ووزن السبائك التي عمم استعمالها سكان بلاد الرافدين . وتتردد التقاليد كثيراً في تعيين زمان ومكان اختراعها . وقد يكون حقق ذلك بعض الافراد في مدن الساحل اليونانية . ولكن ان عدت المملكة الليدية مقتبسة ذاك الاستعمال فهي قد اقتبسته باكراً . وسك القوم في اول الامر قطعاً من معدن استحصلوا عليه بمزجهم الذهب والفضة بنسبة غدت عرضة للتبديل ، فأصبحت من ثم

النقود ذات قيمة غير معينة . وظهرت اول عملية سك نقود فضية في بلاد اليونان ، بينما غـــدا كريسوس اول من سك نقوداً ذهبية في عالم البحر الابيض المتوسط.

الحضارة الليدية والحضارة اليونانية

ان العلاقات مع العالم اليوناني تفسر لنا تشابك هاتين الحضارتين . احتفظت الحضارة الليدية بمظاهر جد شرقية . وشابهت القبور الكبيرة التومولي *Tumuli* الفريجية . وغدت سيبـلة وأتيس الإلهتين الرئيسيتين. وكان للموسيقى مركز مرموق في الحفلات حتى قد تهجم الجيوش على ميله *Milet* « على انغام المزمار والقيثارة » . واتسمت الدعارة بطابع مقدس ، وكانت امراً طبيعياً للفتيات الليديات . وعلى كل فقد ساهمت الجاريات ، بالاشتراك مع رجال الصناعة والتجارة ، باكبر مبلغ لتشييد قبر والد كريسوس. اذا لم يستنكف اليونان عن ذكر تفاصيل حيـاة الليديين الانيقة والمخنثة : فهم يصفونهم مرتدين غلائل طويلة من قماش زاه ، وواضعين في آذانهم الخرصان ، يهدرون الدهن المعطر على رؤوسهم ، ويتضوع المسك والطيب والعطر من اجسادهم . وهم يفضلون الاكل اللذيذ والحلويات والمربيات ، ويخترعون – لتناسي الجوع والقحط – ألعـــاب الكعب والزهر والكرة ، وألعاباً كثيرة اخرى . ولا ترمز هذه الالعاب الصبيانية التي ترفـــع من المعنويات إلا الى الافتتان الذي شعر به اليونان عندما احتكوا بطبقة اجتماعية استغلت معرفتها فنون الرفاهية التي اوجدتها حضارات الشرق القديمة .

ولم يتوان اليونان عن الحضور . فقد عرضوا خدماتهم كمرتزقة وتعاطوا التجارة . وألفوا مستعمرة في سرديس : ففي هذه المدينة ولد الشاعر ألكمان *Alcman* . لا بل توصلوا الى القصر ايضاً إذ ان والدة منافس كريسوس السيء الحظ، وهو اخ له من أبيه، كانت يونانية. وتفتحت الحضارة الليدية على العناصر اليونانية ، واتخـذ الملوك الليديون لنفسهم لقب « محبو اليونان » ، ولم يسلكوا هذا المسلك للدعاوة : فهم استشاروا العرافين اليونان ، واظهروا احترامـــاً فائقاً للاله ابولون في مدينة دلفي ، واكثروا العطايا للهياكل والمدن اليونانية ، وتعاقدوا مـع المهندس تاليس . وتذكر التقاليد بانهم عهدوا الى صاغة يونان في بعض اعمالهم ، وقدموا المعونة الى شاعر الامثال ايزوب *Ésope* ، وتحدثوا الى هذا او ذاك من الحكماء السبعة الذين اتوا الى بلاطهم. ولم ينحصر اثر الحضارة اليونانية في القصر الليدي فقط اذ وجدوا اغراضاً خزفية كثيرة من صنع يوناني في قبور سرديس التي ترتقي الى اواخر القرن السابع او الى النصف الاول من القرن السادس. وبعد مضي قرن على الفتح الفارسي كتب المؤرخ الليدي كسنتوس *Xanthos* تاريخ بلاده باللغـة اليونانية . وهكذا منذ اواخر العصر المتوغل في القدم بدأ ذاك التطور ، وقـــد اشتد مع فتح الاسكندر ، الذي سيجعل من آسية الصغرى الغربية ارضاً خصبة للحضارة اليونانية ، وذلـك طوال العصور القديمة الاخيرة وفترة طويلة من القرون الوسطى

وبالمقابلة فقد غرف اليونان من معين الحضارة الليدية ، واستغواهم الذهب . ولتفسير وجود

الذهب بشكل كثير ومفاجيء من الممكن الظن بانهم لاقوا مناجم جديدة . وعلى كل فقد ذكروا ، وكانوا بذلك على حق ، « هجوم » اليونان ، وهم تناسوا بسهولة انفتهم امام مثل هذا الغنى . وقد اورد هيرودوتس قصة احد نبلاء اثينة الذي سمح له كريسوس ، مكافأة له لانه اضحكه بشكله الزري ، ان يأخذ من الذهب ما يستطيع حمله ، فملأ النبيل إذ ذاك حذاءه وطيات قميصه وفمه ايضاً ، هذا علاوة عن الهدايا الاخرى التي تلقاها . واخذ اليونان من ليديا العدد الكثير من الكنوز ، إذ غدت هذه البلاد ، وهي قريبة من مدنهم الآسيوية ، احدى الطرق ، لا بل الطريق الرئيسية ، التي سمحت لهم بالاحتكاك مع الشرق الذي اقتبسوا عنه الطرق التقنية الصناعيه والفنية ، والعقائد والعبادات الدينية ، والامثال الميثولوجية والمعلومات العلمية . وهكذا غدت اقتباسات اليونان من الشرق كثيرة العدد وثقيلة الوزن ، إذ تعجز المصادفة ان تفسر التقدم الذي احرزته ايونية على سائر المقاطعات اليونانية ، وقد شاركت لا بل خضعت عملياً لسرديس : ولم تلاق اي من هذه المقاطعات سهولة مثل ما لاقته ايونية للاستفادة من اختبارات الغير .

الفصل الثالث

حضارة بلاد الفرس الأخمينية

استولى الملك كورش الفارسي على سرديس سنة ٥٤٦ او سنة ٥٤٥ . وبعد قليل بدأ يونان الساحل بهجماتهم ، وهكذا فوجيء العالم بظهور قوى جديدة سوف يقضي توسعها بشكل صاعق على جميع العقبات ، وذلك اثناء نصف قرن او اكثر .

روح السيطرة الفارسية

كانت هذه القوى لشعب لم يعره احد قبلاً كبير اهتمام . وينتمي هذا الشعب الى الارومة الهندو – اوروبية ، وكان قد استقر في الالف الثاني ق.م في جهات هضبة ايران الغربية . وجاوره جنوباً السوزيون *Susiens* الذين كانوا قد اقتبسوا حياة سكان بلاد الرافدين منذ زمن قديم . ولكن فصلت سلسلة جبال زغروس بين هذا الشعب وبلاد ما بين النهرين . ومع هذا تأتي على ذكره بعض المرار نصوص أشورية . وعندما يقرؤها المرء يعتقد بانه ازاء قوم من البدو السرقة والمقلقين . ورويداً رويداً استقر بعض منهم ونظموا حياتهم حسب تطور لا نزال نجهله .

وحالف هؤلاء البابليين واسهموا ، بقيادة الماديين ، بالاستيلاء على نينوى وتدميرها ، وقد نالوا مناطق بلاد الرافدين العليا عندما قسمت الامبراطورية الاشورية . ولم يكفهم هذا . وكان عليهم ان ينتظروا اكثر من ستين عاماً ليظهروا قوتهم الحقيقية دون حاجة الى حلفاء . وفي هذه الاثناء انتقلت القيادة الى الفرس الذين حققوا غرباً فتوحات ساحقة : فاستولى كورش ، اول ملك من السلالة الاخمينية ، على ليديا ثم بابل ؛ واخضع ابنه قمبيز مصر والقيروان ؛ وغدا الملك الثالث داريوس الاول سيد بعض جزر بحر ايجه وتراقية في اوروبة . واثر غزوات اخرى اشد صعوبة دون شك – ولا تزال معرفتنا بها سطحية جداً – دانت لهم هضبة ايران حتى تركستان ونهر الهندوس .

وفي زمن لاحق غدت حدود الدولة هنا وهناك عرضة للتغيير : وهكذا تخلى الملوك نهائياً عن اوروبة اثر انكساراتهم في بلاد اليونان زمن الحروب المادية . وحصلت في الداخل ثورات

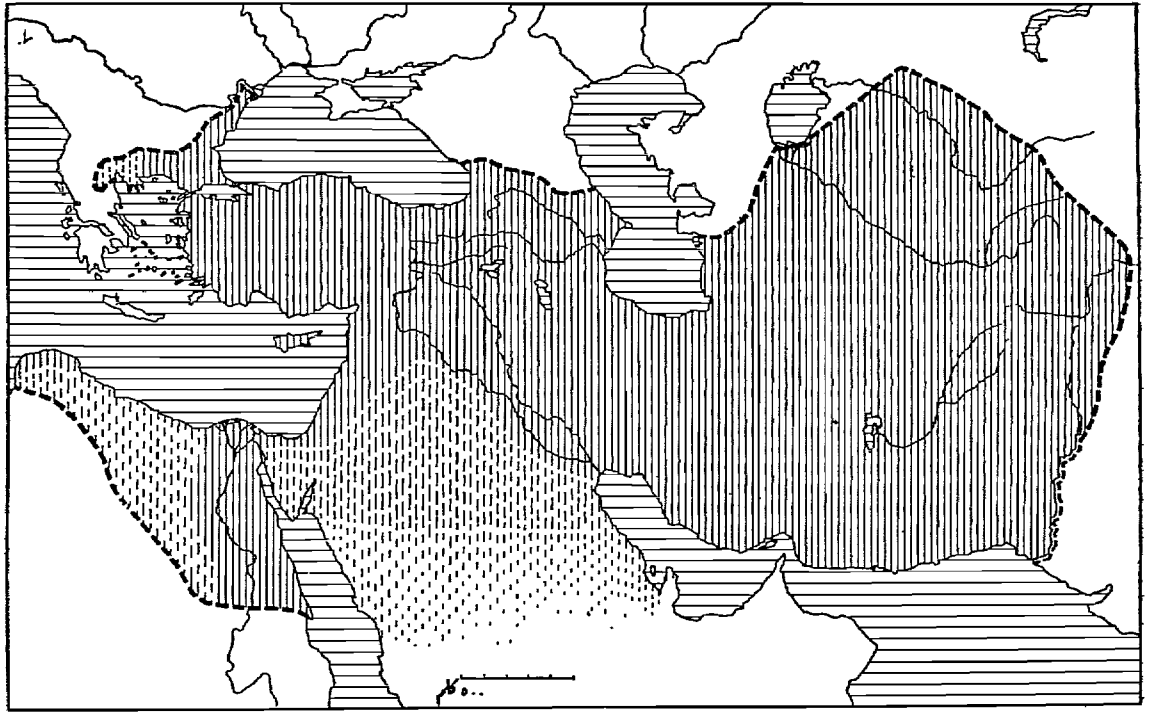

الشكل ١٦ ـ امتداد الامبراطورية الفارسية في بدء القرن الخامس قبل المسيح

متتالية لم يستطيعوا قمعها إلا بصعوبة ، كما حصل في مصر مثلاً . ولكن لا تؤخذ هذه الظروف بعين الاعتبار إذ لم يسبق للعالم القديم ان عرف دولة بمثل هذا الاتساع . ولكونهـا ورثت الامبراطوريات العظمى التي سبقتها فقد هيمنت هذه الدولة على كل الاقطار التي خضعت لتلـك الامبراطوريات ، وزادت عليها بلاداً اخرى : ولم يصل اقوى الملوك الاشوريين الى المضايق او الى نهر الهندوس .

وهناك اكثر من ملاحظة جغرافية . فمن ناحيـة اولى استفاد الماديون والفرس،وقد برروا في زمن لاحق على مسرح منازعـات الشرق السياسية والحربيـة ، من تصعصع شركائهم القدامى وتفككهم . ولم يستطع الذين هددهم الماديون والفرس ان يوحدوا صفوفهم لما استحكم بينهم من منافسات قديمة ، لا بل كان تحالفهم ، ان تحقق ، اعجز من ان يتبلور في عمل مشترك . ومن ناحية أخرى وجد عواهل الفرس في تراث الممالكالعظمى المعنوي التي غلبوها على امرها مبادىء عدة تدعوهم الى السيطرة العالمية . وكان التراث البابلي اغنى من كل رملائه في هذا المجال . لذا ظهر هؤلاء الملوك وكأنهم يحققون منهج الدول الشرقية الاستعماري .

وفي الحقيقة لم يكن اندفاعهم المفاجىء إلا تعبيراً عن دفقة حيـاة جديدة في نظام مرت عليه ألوف السنين . بضة تلت زميلات كثيرات لها امتدت ابعد منهن مدى ، ولكنها ستعرف مثلهن المصير المنهك . وهناك اكثر من ذلك . فان كان الانكماش الذي تلاها قـد تأخر ، ولم يحصل إلا بعد قرن ونصف من الحرب المادية التامة – لكنه عدا اوسع مدى من اي انكماش سابق واتخذ له طابعاً جديداً ، اذ مع الاسكندر عمر العرب لاول مرة اقطار الامبراطوريات القديمة ، ولم يصبح توحيد الشرق إلا عاملاً يسهل مهمة الذي سينتصر عليه . وقد ناب المكدوني مناب العاهل الاخميني ، بعد ان انتصر عليه ، وعدا هو ايضاً وريث المبادىء الملكية التي نشأت في منف وطيوة وبابل وأسور .

الروح الايرانية

« أنا أحشويروش ، الملك العظيم ، ملك الملوك ، ملك الـبلاد المتعددة أصناف رجالها ، ملك تلك الاقطـار الشاسعة ، ابن داريوس الملك ، ابي اخميني وفارسي وابن فارسي وآري من عرق آري » هذا ما تظهره لنا كتابة محفورة على حسم موحد السطح تقريبـاً . وتحوي مجموعة هذه الالقاب اموراً عدة . ودون ان نعيـد الكرة على مزاعم الملك الذي يريد السيطرة على العالم كله سنكتفي بالتعلس على العناصر الاخرى .

يشدّد الملك على وصف اصله العائلي والعرقي . فهو يعلن نفسه بكل اعتزاز بأنه ايراني نبيل؛ ويبقى في الواقع على هذا النحو .

وكان الآريون – وهم الهندو – اوروبيون الذين استوطنوا ايران – اقرباء الغرّ والسماريين الذين سكنوا السهول المنبسطة ما بين الدانوب الاسفل وتركستان . ولم تستطع ايران ، وهي بلاد سباسب وصحارى ، ان تفقرهم . وعدت المناطق ،التي تقع على سفح الجبال المحيطة بالبلاد

من الشمال ومن الغرب ،البقاع الوحيدة الصالحة لحياة استقرار لمناخها الرطب وسهولة الري . ومع انه أسست هناك المدن فقد استمر مبدأ حياة البداوة يسيطر نوعاً ما . وبقي التنظيم الاجتماعي الطبيعي على ما كان عليه في القبيلة : ست قبائل من الماديين، كما يقول هيرودوتس، وعشرة قبائل من الفرس منهم أربع قبائل رحل . وقسمت هذه القبائل الى بطون وأسر : ومن هنا تكاثر عدد الرؤساء الذين يتوارثون السلطة والنبلاء الذين يختلفون فئات وطبقات . ولم يختلف الماديون والفرس في هذا كله عن سائر الايرانيين الا في تكوين نظام ملكي مطلق مبدئيا ولكنه يحسب واقعيا الف حساب للأسر الكبيرة .

واعتقدت بعضها بانها لا تقل شرفا عن الاسرة الاخمينية نفسها. لقد اكتسب كورش سلطة معنوية لا حد لها لما احرزه من انتصارات ، ولكن انقرض نسله بموت ابنه . وانتسب داريوس الاول الى اسرة ثانوية ولم يكن رئيساً لها . وانتخب من بين عظماء كثيرين كانوا قد تضافروا ضد احد المغتصبين . وكان احدهم قد تنازل عن ترشيح نفسه ، شرط ان يعفى ، هو وذريته من بعده ، من الاعتراف باي سيد . واسدى الملك الجديد خدمات جلّى اذ قمع الثورات التي نشبت في سوزه وبابل وبلاد ماداي — فاحرز تسعة عشر نصراً، وادب تسعة عصاة — ونظم الامبراطورية . وقد أضفت عليه هذه الاعمال هالة من المجد استند اليها خلفاؤه . ولكن حصلت اضطرابات عدة كان مصدرها القصر ، وهو مهد الدسائس والمكائد ، او أحدثها نبلاء كان اخلاصهم سريع التضعضع . واستند النظام الملكي الفارسي على اخلاص الفرد للفرد ، وذلك على مدى واسع ، اي على النفوذ المعنوي الذي يتمتع به الرئيس عند صحابته .

وتبرز الروح الايرانية بمُظاهر اخرى تميز الحضارة الفارسية عن الحضارات الشرقية القديمة . ولا يتم هذا في مجال الدين فقط حيث للاله الاعظم أورموزد طباع مميّزة لا جدال فيها ، بل ايضاً — ويصعب تعليل هذه النظرية — في توزيع الامة الى فئات تعتمد كل منها على صناعة ، وذلك حسب مبدإ نظري شبيه بالذي تنفذه اليوم الامة الهندية . واخيراً تبرز تلك الصفة باستعمال نقوش ورموز تعبر عن اساطير غامضة ، يمتد اتساعها الجغرافي دون تعيين حدود ، الى سباسب جنوبي اوروبة واواسط آسية متجاوزاً بذلك حدود ايران . وبين الارواح التي لا يرقى الشك الى دورها الوقائي يحتل الحصان منزلة مرموقة ، إن كان وحده او ضم بصورة غريبة الى حيوانات اخرى كالديك مثلاً . وعندما يخبرنا هيرودوتس بأن داريوس انتخب للعرش لأن حصانه قد صهل للشمس الشارقة قبل أحصنة الطامعين الآخرين بالتاج ، فان معرفة ارادة الآلهة بهذا الشكل تتلاقى مع دلائل اخرى لتظهر لنا الاهمية العملية والروحية التي كانت للحصان عند شعب بدوي الاصل استمر على تعاطي تربية المواشي .

إرث « الشرق الكلاسيكي »

لا نستطيع والحالة هذه ان نفصم العرى التي تصل المملكة الفارسية بأصولها الايرانية : وان رجعنا الى الزمن القديم نرى

بأن هذه المملكة هي غريبة عن « الشرق الكلاسيكي » . ولم تفت الاسكندر هذه الحقيقة اذ تظهر السياسة التي اتبعها بأنه شعر ، وهو في ايران ، بأنه اقرب الى مقدونية مما لو كان في مصر او بلاد بابل .

لكن تأثرت الحضارة الفارسية بحجار كثيرة اخرى، جعلت منها حضارة شرقية. وتعتبر هذه الحضارة ، اكثر من كل زميلاتها السابقة ، نقطة التقاء. ونسبة لما اقام الماديون والفرس من علاقات مع سوسه وبلاد الاشوريين فانهم تخطوا الحياة البدوية الصرفة . ثم جعلت الفتوحات من الاخمينيين ورثة اعظم الامبراطوريات القديمة وسادة اقطار تأصلت فيها اشد الحضارات قدماً . ومع ان هذه الحضارات كانت قد أشرفت على المغيب فانها تركت تقاليد وآثاراً باهرة : فكيف التهرب اذن من اشعاعها ؟ وبرز تأثير الشرق قوياً جداً ، خاصة نفوذ بلاد الرافدين ، وهي اقرب الى وسط الامبراطورية واشد تنظيماً من مصر البعيدة .

ونشأت عن هذه الحالة ، في المجال السياسي ، صعوبات مباشرة اظهرت حدتها الازمة التي برزت عند اعتلاء داريوس الاول العرش. وغدا من الضروري ايجاد نظام ، وان كان اداريا اقله ، لامبراطورية لا تعرف اي وحدة اذ هي فسيفساء بلاد متعددة الشعوب ، تختلف في الدين واللغة والنظام الاجتماعي والحياة الاقتصادية ، ولم يكن الهدف توحيد هذه الحضارات او صهر تلك الامم . ولم يكن هناك سابقة تدعو الى ذلك ، ولم تلاق مثل هذه الفكرة ، ان وجدت ، اي بدء تنفيذ. انهم اكتفوا فقط بنقل بعض السكان من قطر الى آخر وذلك على سبيل القصاص ، فأسكن بعض اليونان في بلاد سوسه ، وكان الاشوريون والبابليون قد لجأوا مراراً كثيرة الى مثل هذا التدبير . وهكذا أسكنت بعض الجماعات الايرانية في وادي النيل وآسية الصغرى الغربية . وقد مثلت هذه الجماعات فرقاً حربية اسندت اليها مهمة الدفاع عن حدود يهددها الخطر او مناطق معرضة للثورات . واكتفى الملوك الاخمينيون ، دون ان يكون لهم هدف واسع المدى والتنظيم ، ان يروا بأن اوامرهم تنفذ ، والحرية تدفع لهم بانتظام ، وتعبئة جيوشهم تتحقق .

وتوصلاً الى هذه الغاية لجأوا الى الطرق التي اتبعها اسلافهم ، خصوصاً ملوك بلاد الرافدين . انهم حسنوها دون شك ونفذوها غالباً كما تقتضيه العدالة والروح الانسانية ، ولكنهم لم يستنبطوا شيئاً جديداً في هذا المضمار . ومع هذا فان التطور الذي قد حصل كان خارجاً عن ارادتهم ولم يحددوا المنتفعين منه .

النظام الملكي

الملك هو مطلق الصلاحية . ولا يحق لأي فرد او لأي مجلس جماعي ان يقاسمه سلطاته او يراقب كيف يستغلها . انه يتسلمها من اورموزد الذي ينتخبه . وتبتدىء كل النقوش الملكية ، تحت ستار الدعاء الى الإله ، باعادة ذكر هذا التعيين : اورموزد هو الاله الاكبر ، الذي خلق السماء في العلى ، واوجد الارض ، الذي ابدع الانسان

واستنبط له الغبطة ، الذي جعـل من داريوس ملكاً ، ووهب لداريوس هذه المملكة العظيمة الغنية بالخيل والسكان » . وقد وجد هذا النص منقوشاً عـلى اربعة وعشرين نصباً في مصر . وعلى وجـــه النصب الآخر وجدوا النص الهيروغليفي المقابل وهو يعزو انتصارات الملك الى عطف إلهة سايس ، والدته . اما في بابل فكان الاله بعل ـ مردوك ينتخب الملك. وهم يسندون النص الرسمي الى التقاليد المحلية . ولكن لا يتكلم هذا النص الا عن الاله الايراني .

ولا تعتبر السلطة الملكية المطلقة التي تقررها ارادة الاله تجديداً في الشرق . كما لا يعد امراً غير مألوف الرأي القائل إن على الملك ان يحب الحق ، ويؤمن العدالة ، ويحمي الضعيف وذلك طاعة لرغبات الإلهة . وتعد هذه النظرية جزءاً من مفهوم النظام الملكي المصري، وقد اشار اليها بشدة حمورابي في قانونه . ولكن يعبر ملوك الفرس عن هذه العقيدة بصورة اشد وضوحاً واكثر استمراراً: « لقد احببت العدل وأبغضت الكذب » كما يؤكد داريوس « وارادتي هي ان لا يلحق ظلم بالارملة واليتيم ؛ لقد جازيت الكذاب وكافأت الفلاح » . وهذا ما يتفق مـع المبادىء التي بشرت بهـــا الديانة الفارسية لكل الامم . وان اعتبر بعض الكتاب اليونان الملك الاخميني ، وهو عدو وطنهم ، مثـــال المستبد الظالم الذي يعد نفسه فوق كل قانون ، فقد اشاد البعض الاخـــر ، ومراراً الكتّاب الاولون ايضا ، بمثل هذه التعاليم . وعلى كل لم تكن هذه الاشادة مجرد كلمات جوفاء، فان كتاب السيروبيدي *Cyropédie* لكسينوفون *Xénophon* هو اقدم قصة تاريخيـة . ولكن اشتهر بحق داريوس الاول بانـــه مشترع عادل ونشيط .

وهناك مظهر كلاسيكي للنظام الملكي الشرقي المثالي، وقد اشاد بذكره الملوك الاخمينيون الذين انتسبوا الى أصل ايراني: فالملك هو القدوة لكل محارب، اذ قد غدا مروضاً على مختلف التمارين الجسدية ! وعندما وصل الاسكندر الى قبر داريوس نقلوا له بهذه الكلمات ما كان قد نقش على ضريحه : « كنت صديقاً لاصدقائي ، واصبحت امهر الخيالة ورمـاة القوس ، وفقت الصيادين، وباستطاعتي القيام بكل شيء ». ويعبر هذا الموجز احسن تعبير عن روح النص الاصلي وان كان اطول .

وفي اول عهد النظام الملكي ، كان باستطاعة النبلاء العظماء ان يقابلوا الملك بسهولة . ولكن بعد داريوس نظمت مبادىء دقيقة جداً جميع اعمال الملك. فهو يعيش في جناح خصوصي بالقصر دون ان يستطيع احد الاقتراب منه. وتخبرنا قصة استير *Esther* بأن نساءه كن ينتظرن اوامره ليلتحقن به . ولم يشاهده الخاضعون لحكمه الا في ايام الاحتفالات ، يخضع الجميع امامه عندما يطل على عرش العظمة او عربة الابهة يحميه حرس منتخب تخلد لنـــا تصاوير سوسه اسلحتهم وحليهم . وقد سبب له هذا الانزواء نتائج لا مفر منها : دسائس الحريم والاغتيالات ومكايد الوزراء والخصيان . ويوجـــد هوة سحيقة بين المملكة القوية التي حكمها كورش الكبير او

داريوس الاول وبين الدولة التي انقضّ عليها الاسكندر اذ كان قد هلك ملكان من ملوكها بالسم بينما احتاط الثالث لنفسه فسمم قاتلها خشية ان يصبح هو الضحية .

الحكم والادارة

للملك عدة عواصم، فمنها ما هو في بلاد فارس نفسها: بسرغاد *Pasargades* التي اسسها كورش ولكنها اهملت بالواقع، وبرسبوليس *Persépolis* التي وضع تصميمها داريوس ، اول ملك من الفرع الثانوي ، لتصبح مقر السلالة الرئيسي والتي لم يكتمل قط بناؤها. وهناك عواصم اخرى كانت قواعد الدول التي اخضعتها المملكة الجديدة : إكبتانا في بلاد ماداي وبابل وسوزه . وقد اهملت مصر وليديا لبعدهما . وشيد الملك في كل مكان القصور وأقام الحدائق « الجنائن » لشدة ولعه بالخضرة والقنص — وكلمة الجنائن هي الاسم الفارسي للحدائق الكبيرة حيث ترتفع الاشجار وتكثر حيوانات الصيد المتنوعة . وسريعاً ما ينتقل الملك من مكان الى آخر دون ان يجبر نفسه في هذا المجال بمبدإ او نظام . ولكن المقر المستحب هو مدينة سوزه، حتى ان اسم هذه المدينة غدا للمعاصرين كأنه رمز لقوة الامبراطورية ولهيئة حكمها .

ويجري طبعا كل شيء باسم الملك . وتتخذ القوانين الملكية العمومية شكل تصريحات شفوية تصدرها دوائر الدولة . ولكن يقوم الى جانب الملك وزير ينتخبه العاهل ويدعوه اليونان «شيليارك *Chiliarque* »ويشتق هذا اللقب من كلمة حربية وهو يعني قيادة جزء من الحرس الملكي .

وترتكز المركزية على وسائل مادية قوية . فقد اعدوا بعض الطرق الكبيرة والحقوا بها سلسلة من الخانات والاصطبلات التي تعتبر كمحطات تؤمن تنقل السعاة السريع . ومن اشهر هذه الطرق الطريق التي تصل سرديس بسوزه ، وعلى كل هي الاشهر لان اليونان استعملوها وغدت موضوع اعجابهم . ولكن لا يكفي تبادل الرسائل ؛ لذا ترسل الحكومة المركزية مراقبين يراقبون الادارات المحلية ؛ وقد دعي هؤلاء « عيون وآذان الملك » حسب استعارة تبنتها الممالك التي سبقت في الزمان .

وهناك وسيلة اخرى تسهل المركزية : اللغة والكتابة . ولم تكتب الفارسية لغة الملوك ، قبل داريوس الاول . ولهذا الهدف تبنوا العلامات المسمارية . واستعملوا اللغة الفارسية في النقوش الرسمية والاستعراضية ، كما استعملوا في الوقت ذاته لغات الممالك القديمة كلغتي بلاد أكاد وسوسه . وقد سمحت هذه النصوص المكتوبة باللغات الثلاث للعلماء المعاصرين ان يحلوا رموز هذه اللغات المنقرضة وذلك لما عرفوه من اللغة الفارسية بواسطة كتب البارسيس الدينية الذين يقيمون في الهند . ولكن لم تصبح هذه اللغة سهلة التداول لانها فرضت استعمال الخزف . وكانت المملكة الاشورية قد بدأت تستعمل اللغة الارامية : وهكذا اعتبرت المملكة الفارسية اللغة الارامية اللغة الوحيدة للأعمال الادارية . وعمدت دوائر الدولة في سوزه الى نقل النص

الفارسي الى اللغة الارامية وارسلت نسخاً من مقرراتها الى الدوائر الحكومية المحلية التي كانت تترجمها بدورها الى لغة القطر الوطنية . وهذا ما يفسر لنا التقدم المستمر الذي احرزته اللغة الارامية في الشرق الادنى — وهذه نتيجة غير مقصودة لضرورة سياسية — وقد نتج كل هذا عن اسناد المملكة وظائفها — ولم يكن لها تقاليد عريقة او مؤهلات لخلق ادارة مركزية على شكل آخر — الى جماعة من الكتبة اورثتهم اياها الدول المنقرضة او انتخبتهم من رعاياهـــا الاكثر تنوراً او اطلاعاً .

وهكذا اكتفى الاخمينيون بتبني اساليب اسلافهم والسير بهـــا نحو الكمال ، وذلك في اكثر من مجال ، ولكنهم اوجدوا مناهج جديدة في مضمار الادارة القطرية ان لم يكن المحلية ، واحترموا الجماعات البشرية والتقسيمات الجغرافية التقليدية كالقبائل والممتلكات العقارية الفسيحة العائدة الى الهياكل والاشخاص ، والمدن والمحافظات . ولكنهم مع هذا قسموا امبراطوريتهم الى عدد من المقاطعات يتراوح بين العشرين والثلاثين دعوها المرزبانات . وكان على رأس كل منها نبيل ايراني يمثل دون شك الملك ، ولكنه يمثل ايضاً في الوقت ذاتـه الشعب الفاتح او بالاحرى تلك الطبقة الارستوقراطية الحربية التي تصلها بالعاهل عرى وفاء شخصي ، اذ تشترك واياه بحماية وادارة الاقطار التي انتصر عليها مجهودهم المشترك . وقد برزت الصفة الايرانية في اكثر مظاهر هذا التنظيم ! اذ عاش المرزبان ، ولو على مستوى اقل ، عيشة الملك ، وكان له قصر وحرس وبلاط واصدقاء شخصيون . ولم تخل هذه الحالة من مخاطر . واتخـذ داريوس الاول للأمر احتياطاته اذ اوجد المفتشين والمراقبين ، وانشأ نظام البريد الملكي ، وأقـــام بجانب « المرزبان » امين سر يراسل مباشرة الوزير ، واسند الى قائد خاص قيادة الجيوش الموجودة في المرزبانة . ولكن ضعف بعض الملوك والتنازع على السلطة في القصر اوهنا هـــذه العرى التي كانت قديماً متينة وقوية . وجنّد بعض المرازبة مباشرة المرتزقة وطالبوا — ونالوا مبتغاهم — باسناد وظائفهم الى اولادهم ؛ وقد احدثت هـــذه التصرفات ، في القرن الرابع ، اضطرابات طويلة الامد في نواحي الامبراطورية الغربية . وبعد ان كانت هذه القلاقل محلية فقط اتسعت فحدثت اذ ذاك « ثورة المرازبة الكبرى » التي لم يقض عليهـا ارتحششتا الثالث الا بصعوبة كلية .

اهداف الادارة

توخت هذه الادارة في الدرجـة الاولى اعطاء الملك وسائل اظهـــار جبروته .

وهذا الهدف الاول توفير الاموال ، لذا اجبر جميع رعايا الدولة على دفع الجزية ما عـدا الفرس والماديين ، وهم الشعوب المظفرة . وكان داريوس قد حدد مقدار هذه الجزية لكل من المرزبانات . ولتوزيع هذه الضرائب على الجماعات التي اجبرت على تأديتها ، اعتمدوا الاساليب القديمة المتبعة وذلك على اساس اعمال مساحة نظمت هنا تنظيماً دقيقـاً وهناك حسب تقدير

تقريبي . وغدا للفرس من ثم فضل التوفيق وليس الاختراع . ولم يجر خلفاء داريوس ، كما يبدو ، تغييرات اساسية في هذه الاجراءات . وقد نجد تفسيراً للثورات المتكررة في بلاد بابل دون اعتماد الافتراض القائل بزيادة تلك الضرائب . فهي كانت منذ الاساس المرزبانة الاشد احتفاراً والمفروض عليها ابهظ جزية إذ اجبرت سنوياً على تأدية ألف مثقال فضة وخمسمئة خصي . وكان قسم من الجزية يدفع خيرات طبيعية والقسم الآخر سبائك من المعدن الثمين . واستعمل جزء من هذه الضرائب في كل مرزبانة لإعالة الجنود والموظفين المقيمين فيها . وهكذا قدمت كيليكية ٣٦٠ حصاناً ابيض و ٥٠٠ مثقال فضة يصل منها فقط الى الحكومة المركزية ٣٦٠ مثقالا . ويلجأ هيرودوتس ، واليه يعود فضل وقوفنا على حسابات عهد داريوس التفصيلية ، الى ضرب رقم مثاقيل عيار الذهب التي كانت تدفعها المرزبانة الهندية وهي ، حسب قوله ، اغنى المرزبانات واكثرها سكاناً ، وذلك للحصول على كمية الفضة المعادلة لذاك العيار الذهبي . وهكذا يؤكد بأن تلك المرزبانة كانت تدفع ما يقابل ١٤٥٦٠ مثقال فضة — اي ما يعادل ٨٧،٣٦٠،٠٠٠ فرنكاً فرنسياً في سنة ١٩١٤ . واعتبر اليونان دوماً بأن لملك الفرس ثروة ضخمة حضع لجاذبيتها اكثر من شخص .

وعلاوة على الاعباء المالية كانت هناك اعباء حربية . وتألفت القوى التي اخذ الاخميني على نفسه تعبئتها ان دعت الضرورة من فرق تقدمها كل مرزبانة ويقودها قائدها عادة المرزبان نفسه . وهكذا استطاع العاهل جمع اسطول وجيش كثيري العدد . ولكن لم تسير هذا الجيش وذاك الاسطول اي روح وطنية وقد كانا مجموعة عناصر مختلفة من حيث السلاح وخطط القتال واللغة . وقد استغل اليونان ، اعداء الفرس ، هذا الواقع الى ابعد مدى فذكروا لجيوش الفرس رقماً هيولياً وتحدثوا عن عبيد سيقوا الى المعركة تحت تهديد السوط . لقد وجدت دوماً في خضم هذه الجماهير عناصر حسنة ، خاصة الايرانيين ، خيالة كانوا او رماة ، والمشاة البالغ عددهم عشرة آلاف وهم فخر الحرس الملكي ، ويدعونهم « الخالدون » . ولكن اهاب تفوق الجندي اليوناني التقني بالملوك والمرازبة الفرس لتجنيد المرتزقة اليونان ودلك بصورة تصاعدية ابتداء من اواخر القرن الخامس ؛ وقد اثبتت حوادث عدة هذا التفوق ومن اشهرها مغامرة « العشرة آلاف » من بلاد بابل حتى البحر الاسود . وايام غروة الاسكندر كان المرتزقة اليونان يؤلفون قسماً هاماً من الجيش الفارسي ، اقله من الفرق التي لم يعوزها كبير وقت للانتقال من مكان الى آخر ، كما كوّن ايضاً اليونان او بحارة شواطىء آسية الصغرى الذين ينتمون الى عنصر يوناني ، بالاشتراك مع البحارة الفينيقيين ، رجال اسطول حسبوا له حساباً .

هل حددت الدولة الفارسية لنفسها اهدافاً اخرى ؟ انها على كل لم تقرر بملء ارادتها ووعيها منهاجاً اقتصادياً . فقد تركت للأقطار التي اخضعتها حرية الاستمرار على تنفيذ النظم التي ارادتها لنفسها . ولكن حصل مجهود مرموق في حقل التشريع ، وخاصة في بلاد بابل ، ومع دلك لم تسعَ الدولة لتوحيد القوانين . وقد سهلت الوحدة السياسية التعامل التجاري اذ قللت

الحواجز والصعوبات واوجدت جو أمن وسلام لتنقل التجـــار، ولكن لم يستفد القوم من الامكانيات التي بررت امام الاتصالات البحرية . ومع هذا استطاع احد الأسيويين الغربيين الذي كان في خدمـــة داريوس وهو الكاري سكيلاكس من كاريندا ، ان يجاري نهر الهندوس ثم يحاذي سواحل ايران الجنوبية ليدور بعد ذلك حول الجزيرة العربية وينتهي عند السويس . ولكن بقي هذا « الطواف » وحيد جنسه ولم يستفد تجارياً منه احد ، وكان قد نظم لغايات سياسية ، وبصورة ثانوية علمية . وسيظهر نيارك ، امير البحر عند الاسكندر ، جرأة فائقة عندما يتم جزءاً من الرحلة التي قام بها سكيلاكس . والطريق الوحيدة للشرق الاقصي كانت الطريق البرية : فبعد اجتياز ايران كانت هذه الطريق تتفرع نحو افغانستان والهند من جهة ، ونحو تركستان والصين من جهة اخرى . وقد عرفوا هذه الطريق واستعملوها ولكن نجهـل مدى استغلالها.

وكانت تنقص الامبراطورية الفارسية لتحقيق امكانياتها الاقتصادية سياسة ماليـة منظمة ومطردة . ولم يتبع الاخمينيون الا قليلاً المثل الذي قدمه لهم الملوك الليديون . فهم منذ عهد داريوس الاول ، ضربوا السكة الذهبية « الدارجة » وذلك بكمية قليلة جداً ، ولكنهم لم يعمدوا الى ضرب النقود الفضية الا في زمن متأخر ، كما سمحوا للمرازبة ان يسكوا مثلهـا باسمهم . وقد قام هؤلاء واولئك بهذا العمـل لضرورة معاملاتهم مع اليونان ، وهم المرتزقة والتجار ورحال الفن . ولكن يؤكد انتشار قطـع النقود اليونانية في الامبراطورية الفارسية التي بعدت بعض اقطارها بعداً شاسعاً عن البحر الابيض المتوسط بأن النقود الفارسية لم تفِ بالمطلوب الصروري . وفضّل ملوك الفرس تكديس الثروات محتفظين بالمعدن الثمين الذي دُفع لهم كجزية بشكل سبائك صبت على هيئة اوانٍ . وهكذا بقيت وقتـاً طويلاً هذه الثروات دون فائدة . وعندما استولى الاسكندر على العواصم الفارسية وضع يده على كنوز لم يُر لهـا مثيل في ذاك العصر ! مئة وعشرون الف مثقال في برسبوليس وحدها ... وهذه القيمة تعادل اكثر من مليار فرنك في سنة ١٩١٤ م . وسارع هو وخلفاؤه لسك نقود من هذه الكميات ؛ محدثين والحالة هذه ثورة اقتصادية حقيقية في بعض الاقطار حيث بقي التبادل التجاري يحتفظ بأشكال متأخرة وقديمة العهد .

واستطاع بعض الملوك ان يراقبوا مراقبة دقيقة حكام المقاطعات المحليين ، فاهتمت الدولة اذ ذاك برفاهية رعاياها وحمايتهم من مظالم السلطات. ولا نجد في هذا المجال اوضح من رسالة ارسلها داريوس الاول – ولا نجد دوماً الا هذا الملك ! – الى موظف نجهل رتبته كان يشغل وظيفة ما على الساحل الإيجي . وقد افادتنا عن هذه الرسالة كتابة يونانية غير كاملـة ، لسوء الحظ ، ورد فيها : « عرفت بأنك لا تخصع لأوامري بحذافيرها . وبما انك تستثمر املاكي اذ تزرع فيها اشجاراً مثمرة بعد ان تنقلها من سورية نحو شاطىء آسية فاني امتدح افعالك وستلقى مكافأتك من القصر الملكي . ولكن حيث انك تستهزىء بتعليماتي التي اصدرها تجاه الآلهة فاني

سأريك ، ان لم تغير سلوكك، مدى غضبي . فقد فرضت دون حق ضريبة على مزارعي ابولون المقدسين وامرتهم بأن يفلحوا ارضاً لا تخص الإله ، مستهتراً والحالة هذه بعرفان الجميل الذي ابداه اجدادي نحو الاله ، الذي علّم الفرس حقيقة شريفة و ... » وهكذا توخت الادارة كاهداف لها ، وقد احسنت مراقبتها ، تقدم الزراعة والعدالة والتساهل نحو الآلهة الغريبة ، شرط ان تعلم الحقيقة ، وهذه كلها موجبات معنوية اخذتها الديانة الفارسية بعين الاعتبار .

الديانـــة

عرف الشرق قبل هذا التاريخ فاتحين لم يتصفوا كلهم بالتسامح . وقد اعتبر الاشوريون حروباً عدة جرت بين الامم معارك تنشب بين الآلهة . وعندما سبى نبوخذنصر البابلي اليهود الى عاصمته قسا بشراسة ضد الهيكل اليهودي . ولا يفهم سلوك الاخمينيين على حقيقته الا اذا قورن بمثل هذا النهج الذي سار عليه سلفاؤهم مباشرة . وحالما وصل كورش الى بابل قدم « خضوعه لبعل ـ مردوك » كما اطلق في الوقت نفسه سراح العبرانيين وساعدهم في تعمير مناطقهم . ولم يقدم خلفاؤه على اي اضطهاد ، ولم يفرضوا آلهتهم بالقوة ، لا بل أدوا لسائر معتقدات امبراطوريتهم الاحترام التقليدي الذي كان يؤديه الملوك الوطنيون: وهكذا قدمت في اورشليم كل يوم ذبيحة على اسم ونفقة الملك ، ولم يلحق اي اذى برجال الكهنوت في مصر وبلاد بابل الا بقدر ما اتهموا به من تحريض على الثورة . وان لم يعرف العالم القديم ، منذ هذا التاريخ ، الا بصورة استثنائية التعصب الديني ، فان ذلك يعود الى المثل الذي ضربه الملوك الفرس .

ولم يكن سلوك هـــؤلاء الملوك في هذا المجال تعبيراً عن عدم مبالاة او بصورة اولية عن كياسة سياسية ، بل اقتبالا لديانة اعتبرت على غير مستوى .

ويصعب علينا تحليل خيوط الكتلة التي تؤلف الديانة الفارسية القديمة . وان لم تفتقر هذه الديانة اموراً أساسية من الديانات الشرقية فانها تحتوي مع هـذا على عناصر مختلفة لا نجد لتفسير الكثير منها معلومات مستقلة . وجمعت هذه المبادىء في كتاب زند اوستة المقدس . وقد نعثر على بعض العناصر الهندو ـ اوروبية التي نجدها في كتاب ريغفدا الهندي ، وهذه العناصر هي قليلة . ولكن هناك ايضاً مبادىء آرية بحتة ، اي خاصة بالايرانيين الغربيين، والتي لم تعم بواسطتهم القبائل الايرانية الاخرى الا في زمن متأخر . وقد اتى احد المصلحين ، زرادشت ، بتعاليم في غاية النقاوة ، ولكن شوّهها جمهور المؤمنين بها . وتطرح هذه الوقائع اسئلة لا عد لها ، دون ان يجدوا لها حلاً لتاريخه . وتختص اهم هذه الصعوبات بزرادشت نفسه . فقد لاقت تعاليمه دون شك ، وهو بعد على قيد الحيـاة ، نجاحها الاكبر في ايران الشرقية . ولكن اين بالتدقيق ؟ وخاصة في اي زمن ؟ ان الليدي كساتوس هو اول الكتّاب المعروفين في التاريخ الذي يأتي على ذكره ويرجعه الى القرن الخامس . ويرجع به المؤرخون العصريون الى عهد اكثر قدماً ، ويذكرون عادة القرن السابع او القرن السادس . وعلى كل يعجب المرء

كيف تجاهلت ديانة الاخمينيين الرسمية زرادشت وتعاليمه .

ان جوهر عقيدة المصلح هو التوحيد بانقى مظاهره. فهي لا تقر الا باله واحد هو اورموزد، لا قياس لعظمته وقدرته وروحانيته . وتوجد معه وحدات مجردة هي اشكال منه او مبادىء صادرة عنه . ولكن في منزلة اقل من منزلته يتناحر منذ خلق العالم روحان ، احدهما للخير والآخر للشر ، ولا يعرف نزاعهما مهادنة وهو يشمل كل شيء . وعلى الشخص ان يحارب عناصر الشر في ذاته وخارجاً عنه ، وعلى هذا الاساس سينال السعادة بعد الدينونة الاخيرة . وتنحصر العبادة في هذا الجهد اليومي المتواصل متحررة من كل تقادم او ذبائح مادية ! « ان رجل التقوى هو قديس : وهو يزيد العدالة بالعقل والكلام والعمل والضمير». وهكذا يشعر المرء الى اي قمة اوصل هذا المصلح، الذي يشتمله الغموض، فكرته .

وتتغير عن هذه المبادىء ديانة الاخمينيين الرسمية التي تظهر لنا من خلال النصوص الملكية . فهي تعتبر اورموزد « اكبر الآلهة» ، ويتحدث داريوس الاول عن «الآلهة الاخرى الموجودة» . انه تعبير غامض وهو يشمل دون شك آلهة غريبة — وهذا ما يفسر لنا التسامح نحوها — وآلهة ايرانية اخرى . ويجب انتظار حفيد داريوس ، حوالي منتصف القرن الخامس، لنعرف بالتدقيق إسميْ إلهتين من هذه الآلهة الايرانية وهما ميترا وأناهيتا. وعلى كل يبقى اورموزد الاله الاعظم، الاله الملكي بالدرجة الاولى ويمثلونه برسم قرص شمس مجنح يخرج منه نصف الشخص الاعلى يحمل لحية ويكلل التاج هامه . ويشتق هذا الرسم من الرموز الاشورية الدينية . وبما انه خالق العالم، بما فيه الارض والسماء ، فهو اكثر من الشمس : انه النور السماوي «السيد الحكمة» منظم السعادة والعدالة ، الذي يأمر بحب الحقيقة وبغض الكذب . ومع وجود هذه الغزوة نحو المبادىء الروحانية الطاهرة فقد قدم الملوك الذبائح، اقله باشعالهم شخصياً النار التي لا تنطفىء على المذابح.

وقد ابقت الديانة الشعبية، التي استمرت على شيء كثير من الحيوية، المركز الاعلى لاورموزد ، ولكنها تلصق به جمهرة من الآلهة التي تمثل قوى الطبيعة والعناصر . واكثر من هذا ، فهي تتخيل ، مقابل عالم الاله الاكبر ، عالم النور واليسر والخصب ، عالماً للدياجير والاشراك والشياطين ، ويسيّر هذا العالم اهريمان . انها تؤمن بضرورة جهود الانسان الروحية وبدينونة النفس التي قد تفضي الى فردوس افراح مادية جداً . ومع هذا فهي تعتمد كثيراً على طقوس العبادة التي يقوم بها ، او اقله ينظمها ، رجال الكهنوت اعني المجوس ، وتقر ايضاً عبادة النار والاناشيد والتقادم والذبائح الدموية التي ندد بها زرادشت بكل شدة. واستناداً الى هذه المعتقدات فهم لا يحرقون الجثث ولا يدفنونها كيلا يدنسوا النار او التراب ولكنهم يلقونها في اماكن صحراوية . ولا نستطيع لسوء الحظ تحديد الوقت الذي فرضت فيه هذه الفكرة نفسها بتلك القوة.

الحياة الفكرية

ان الديانة الفارسية زادت على مجرى التفكير القديم افكاراً جديدة منها الدينونة الاخيرة ومبدأ المثنوية ، هذا مع العلم بانها شددت اكثر من الديانات

الاخرى على المبادىء الادبية . أما في باقي مجالات الحياة الفكرية فلم يأتِ الفرس بأي جديد . ولا نملك في هذا المضمار لإبداء الحكم إلا كتاب زندافستا ، وهو كتاب ديني تناقل القوم اجزاءه القديمة بالسماع ، لأنهم لم يلجأوا الى الكتابة الا في اواخر القرن السادس .

ولا يحتوي هذا الكتاب على أمور علمية . لقد كان لدى الفرس اطباء دون شك . وداوى بعضهم بالنباتات ، أما الآخرون فلجأوا الى التعابير الطقسية . ولكن جلب الملوك الى بلاطهم أطباء يونان او مصريين . ولم تظهر ايران كمهد للعلوم او لشبه العلوم التي كلف بها الغرب واطلق عليها اسم زرادشت إلا في زمن متأخر ، أي بعد العصر المسيحي : ومنذ هذا الزمن اتخذت كلمة « مجوسية » معناها الحالي ، وقد اشتقت من اسم الكهنة الايرانيين .

ولا يبدو بان حياة الامبراطورية الفكرية الحقيقية كانت فارسية ، لا بل لم يهتم كثيراً الفرس لهذه الحياة. وقد اصلح التقويم البابلي مرة اخرى سنة ٣٦٧ ق.م. إذ حددوا السنين والفصول حيث كان يجب حشر الشهور التي قرروا زيادتها ، وذلك ضمن اطار الوحدة التي تشمل تسعة عشر عاماً . ولكن فضل الفرس الوحيد في هذا المضمار هو السماح لعلماء الفلك من الكهنة متابعة ابحاثهم . واظهر بعض الايرانيين ميلاً للفلسفة والعلوم ، حتى اليونانية منها . وقد تحدثوا عن وجود ثلة منهم بالقرب من أفلاطون في اواخر ايامه . ولكن بقيت مثل هذه العناية امراً استثنائياً ، ولا يظهر بان أحداً من الملوك رغب فيها .

الفن

ان الحالة في مجال الفن على غير ما ذكر اعلاه ، وان كان مؤكداً بانه لم يحتل إلا منزلة محدودة في الحضارة الفارسية . اننا لا نجد تماثيل للآلهة ، او هياكل ، إذ اكتفت الآلهة بالمذابح ، لا بل زهدت بهذه الأخيرة مراراً . ولا نجد ايضاً قبوراً ، للافراد أقله . وحسب علمنا لم يشيد الشخص لنفسه بيتاً كبيراً ، ولم يأت باي ابتكار في هذا المجال من حيث الهندسة او الزينة . ومع هذا يوجد فن فارسي ، إذ وجد ملوك فرس لم يستطيعوا التخلي عن التقاليد التي تربطهم بالملوك الشرقيين . ولأنهم فاقوهم قوة وغنى ، وقد أعلنوا نفسهم « الملوك الكبار ، ملوك الملوك » ، ارادوا أقله مساواتهم بما خلدوا من آثار . لا بل فرض عليهم مثل هذا السلوك مقامهم في اعين رعاياهم الايرانيين الذين اعتقدوا بان الذي ينتخبه اورموزد هو من جوهر سام جداً .

وهكذا تعرض الفن الملكي ، في مراحل التصميم والتنفيذ، الى تمجيد الملك والسلالة والسلطة الملكية . ولكن لم تبرز هذه الاهداف منذ البدء : ولم يكن كورش بحاجة الى شيء من هذا وكانت عاصمته يومئذ بسرغاد مدينة متواضعة . وغدت المبادرة في هذا المجال لداريوس الاول الذي نظم الامبراطورية ، فتبنى الانواع الثلاثة من المباني التي لم تفصل قط في دول اخرى عن فكرة السلطة الملكية وهي : النقوش بشكل ضخم وبارز التي تذكر باعمال الملك الباهرة ، ثم القصر وهو الاطار المهيب للحفلات والبلاط ، واخيراً القبر الذي يحمي شخص الملك من

الاهانات بعد موته . ولكن كان هذا الهدف الاخير رمزياً إذ لم يسع الفرس ، أو سعوا قليلاً جداً ، للاحتفاظ بالجثة الطبيعية . وفعلاً كان مبنى ، على شيء كثير من البساطة ، قد حمى ما تبقى من كورش . ولكن ايام داريوس وجد تقليد في غاية السمو يؤكد بان الملك لا يخضع للناموس الطبيعي .

وغدا الفن الفارسي ، وهو فن ملكي ، متعدد النماذج والأصول ، إذ لم يكن لايران تقاليد عريقة ، بينما عرف الشرق الذي خضع للفرس بغناه في هذا المجال وبغنى اختباراته . وقد قدمت المناطق المواد الاولى والعملة ورجال الفن . ولنصغ الى داريوس الاول في سوزه : « لقد أتيت من بعيد بالمواد التي بنيت بها هذا القصر في سوزه . والشعب البابلي هو الذي حفر الارض وكوّم الحصى ، وجلب الارز من لبنان . وقد أتى به البابليون حتى بابل ، واوصله من بابل « الايونيون والكاريون » ـ وهم مسبيون ـ الى سوزه . وأتوا بخشب الصندل من الهند ، والذهب من سرديس وبكتريه ، واللازورد والزنجفر من سوغديانه ، والفيروز من بلاد خوارزم ، والفضة والرصاص من مصر ، والمواد التي تزين الجدران من ايونية ، والعاج من اثيوبة والهند ، والعواميد الحجرية من كاريه . وكان نحاتو الحجارة ايونيين وليديين ، والصاغة ليديين ومصريين وعمال الخزف بابليين ، ومزينو الجدران ماديين ومصريين . لقد انجز عمل باهر في سوزه . ليحمني الإله اورموزد... » وقد أتى هؤلاء الرجال ، وهم مختلفو الاجناس ، بالحلول التي ارتأوها وعملوا حسب فنونهم . واننا نجهل الشخص الذي نسّق هذه الاعمال . ولكن على كل برز القصر وكأنه مختصر للامبراطورية واتخذ من ثم هذا الفن قيمة رمزية .

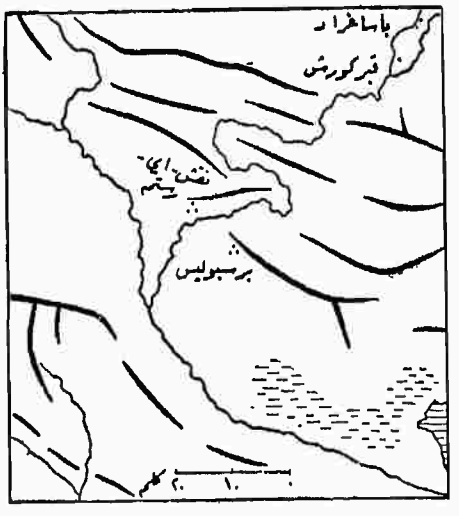

الشكل ١٧ ـ منطقة برسبوليس

ولم يستعمل احد غير داريوس النقوش الهائلة التي توخت التذكير . انها نقوش «بهستون» الصخرية وقد حفرت على علو مئة متر وعلى صخرة تشرف على احدى ممرات جبال زغروس ، وهي الطريق التاريخي الكبير بين بلاد أشور وبلاد ماداي . وتتغنى هذه النقوش بالانتصار الذي احرزه داريوس على الثائرين الذين هددوا أمن وسلامة الامبراطورية غداة تسلمه العرش . وفي اعلى النقوش رسم يرتفع فوقه رمز أورموزد : قائدان والملك وعشرة من الاعداء وقد ألقي

أسهم أولاً وقيد التسعة الآخرون ووضع الحبل في عنقهم ، وفي الأسفل نقرأ كتابة بلغات ثلاث تسرد الحوادث . ولم يستطع احد ان يقرأها وهو على الطريق ، وغدا الجهد المبذول لقراءتها اشادة عظمى بعظمة الملك وجبروته .

والقبور الملكية في برسبوليس ونكش – اي – روستم *Naksh - i -Roustem* هي صخرية ايضاً ، وقد أخذوا فكرتها الاولى عن القبور المصرية . ولكن لم يتسع داخلها إلا الى رواق وغرفة دون نقوش او رسوم ، وقد بقي من ثم في غاية البساطة . وصبوا جل اعتنائهم على الخارج. وقسمت الصخرة ، وقد برزت على شكل صليب يوناني كبير ، قسمين عليها النقوش . ويمثل القسم الذي في الوسط ، وهو الاكثر عرضاً ، مجموعة من العواميد تحمل افريزاً : أي واجهة قصر ينشق في وسطها باب القبر. ويمثل القسم الاعلى الملك امام مذبح النار الذي يعلوه اورموزد ، وترى الملك على دكة يحملها رجال يرمزون الى المرزبانات .

والقصور هي اشد تأثيراً ايضاً . وقد أراد كل ملك ان يشيد له قصراً خاصاً في العواصم الوطنية ، او أقله زيادة شيء جديد على مباني أسلافه . وهذا ما يفسر لنا كثرة القصور وتشابك اجزائها . وهذا ما يشرح لنا ايضاً السرعة التي جعلتهم يستعملون الآجر للجدران طبقاً للتقاليد الاشورية ، والاحتفاظ بالحجارة لاطار الأبواب ، مع اننا في مناطق كبلاد فارس حيث لا تنقص المواد الصلبة للبناء . وهذا مايعلل لنا اخيراً عدم اتمامهم الاعمال مراراً ! ففي برسبوليس بالذات نرى اجزاء الأساطين انتهوا من اعدادها ولكنهم لم يركزوها في مواضعها .

وتعرفنا خاصة اعمال التنقيب الحديثة بقصر سوزه الكبير وبمجموعة المدينة الملكية المهيبة في برسبوليس . وبعد ان شيد داريوس هذه المدينة الاخيرة لتصبح عاصمة السلالة بدأوا رويداً رويداً يتخلون عنها لمصلحة سوزه ، ولم يظهر فيها الملك إلا نادراً جداً وذلك في مواسم الاحتفالات الرسمية . ولكن بقيت برسبوليس مع هذا رمزاً للمملكة الاخمينية اكثر من المدن الاخرى ، وعلى هذا الاعتبار احرقها صحب الاسكندر عندما مروا فيها وذلك ثأراً لما سببه الفرس من خراب في بلاد اليونان اثناء الحروب المادية . وتستند هذه المدينة الى الجبل وتشرف على سهل واسع . وهي تمتد على فسحة مسطحة نصف اصطناعية يبلغ طولها ٥٣٠ م وعرضها ٣٣٠ م إذ قد فرّض الصخر وسويت حافاته حيث أقيم جدار من الحجر النحيت . ولم يخشوا الفيضانات ، ولكنهم حذوا حذو تقاليد بلاد الرافدين فشيدوا القصور الملكية في مكان يشرف على المدينة التي يقطنها عموم السكان.

وغدت قاعة الاستقبال ، «الأبادانة» ، حيث يجلس الملك على عرشه تحيط به هالة من الوقار والعظمة اهم اجزاء قصر سوزه وبرسبوليس . وتحمل سقفَ هذه القاعة المصنوعة من خشب الارز اعمدة تعد قليلة العدد نسبة الى مقاييس القاعة – ٣٦ عموداً فقط في مربع يبلغ ضلعه

٤٣،٥٠ م—ورفيعة جداً نسبة لعلوها— قطر القصر ١،٦٠ م لعلو ٢٠ م تقريباً— ونسقوا هذه « الغرفة ذات المئة عمود » على غرار قاعات الهيا كل المصرية ، ولكن خفة وزن السقف سمحت بالابقاء على شكل العمد الرشيقة . ويوجد تجديد آخر سببه تاج العمود الذي يمثل ، فوق نقوش حلزونية الشكل ، رؤوس ثيران حائية .

وزاد فن التزيين في عظمة هذه الهندسة ، وقد اعتمد كثيراً على اللون ، لا بل على الحجارة الكريمة أو الذهب . ففي سوزه رسموا صفوفاً طويلة من الجنود والاسود او الحيوانات الخيالية على قطع من الآجر الناتىء ، والمطلي بالمينا وفقاً للطريقة البابليـــة ، والذي يظهر في اجزاء السلالم والممرات السفلى . أما في برسبوليس فقد اعادت الرسوم المسطحة التي صورت على الحجر باظهـــار الجنود او المكلّفين الذين يحمـــلون الى السيد ، وهم في زيهم الوطني ، ضرائب اوطانهم . وهناك ايضاً رسوم ونقوش بافرة — وهذا ما يحدث نادراً جـداً — تستلهم الرسوم الأشورية : الثور المجنح وله رأس بشري ، صراع الاسد والثور ، قتل وحش هائل بيد الملك . ولا نرى اي رسم او ظل رسم لامرأة ، بل نجد دومـــاً رسوم الملك ورعاياه وجنوده وثروته وعظمته دون عطفه .

ولذا يبقى كل شيء في هذا المضمار على وتيرة واحدة ، وإن هم سعوا لبعث الحياة فيـــه . ومع هذا يجدر بنا ذكر تأثير الفن اليوناني على ما سبق لنـا وذكرنا من تأثيرات عدة ، وان بدا هذا التأثير محدوداً جداً نسبة لغيره او لم يبرز بصورة عملية الا في تموجـات بعض الثياب والستائر ، ولكنه يوجد على كل حال وقد ضم الملك الى امبراطوريته جزءاً من العـالم اليوناني وأتاه رجال فن من الاجزاء التي بقيت حرة ؛ غير ان احداً منهم لم يكن من الدرجـة الاولى الممتازة ، أو ان احداً منهم لم يستطع ان يعـــبر كما يرغب عن المواضيع الرسمية: ولا يلاحظ وجودهم هنا وهناك الا في تجعيد أو طية قطعة القماش الذي يغطي الجسم .

الميرة الايرانية والهلينية

تعايشت معاً الحضارة الايرانية والحضارة اليونانيـة الكلاسيكية ، ولم تحل المنازعات التي نشبت بين الشعبين دون احتكاك هاتين الحضارتين.

ولكن حذار ان نبالغ في مدى الاقتباسات التي أخذت عن الحضارة الهلينية . لقد سمح الملوك لليونان بالتجول في الشرق والوقوف على حالته . وما قام به هيرودوتس هو اكبر شاهد على هذا التسامح . ولكن تابع الفن اليوناني تطوره وكان قد تجاوز عهد تلمس طريقه . وعرف اليونان الهند بواسطة فارس ، ولكن بقيت معرفتهم لها سطحية جداً : وان وجد عمليـاً التأثير الهندي فلم يتجاوز حدود بعض المبادىء الطبية وبعض الادوية . ان أفلاطون عرف « فكرة الثنائية » الزرادشتية ، وقد استهوته . ولكن انتهى كل شيء عند هذا الحد ، وعلينا ان ننتظر عدة قرون لنلاحظ انتشار عبادة ميترا وعلوم السحر السرية المنسوبة الى « المجوس » الذين لا يمثلون مع هذا، الحضارة الايرانية في القرنين الخامس والرابع .

وبصورة معاكسة فـــلم المتهو الحضارة الهلينية ، وبصورة سطحية فقط ، إلا بعض أفراد الطبقات الحاكمة الذين رأوا فيها أساليب عيش رخاء ورفاهية لم يعرفوها قبلاً ولم يريدوا ان يحرموا أنفسهم منها . وفي زمن الحرب التي انتهت باندحار « سلامين » كان احشويروش الملك قد وضع يده على بعض الآثار الفنية وأتى بها الى سوزه . ودخلت نساء يونانيات الى حرم الملك أو تزوجن مرارية يحكمون المقاطعات الغربية . وخدم بعض الاطبـاء اليونان في بلاط ملك فارس من امثال ديموسيدس الكروتوني *Democédès de Crotone* في القرن السادس وأبولونيد من جزيرة كوس *Apollonide de Cos* في القرن الخامس، ثم كتيسياس *Ctésias* ؛ ولكن يقـــال بان ابقراط *Hippocrate* رفض عروض أحشويروش المغرية . وتجند مرتزقة يونان كثيرون في صفوف الجيش الفارسي في القرن الرابع ، وقد لعب بعض من قوادهم دوراً مهماً ، دون ان يكسبوا مع هذا ثقة الملك الكاملة . ولم تجد التجارة الأثينية أي قيود . وباستطاعتنا ان نضيف الى هذه الحقائق حلقات عدة ولكن دون ان نغير شيئاً من النتيجة . وان غدا تقدم الحضارة الهلينيـة مؤكداً في آسية الصغرى الغربية ، حيث كانت قد استمالت اليها السكان الوطنيين ، فان الايرانيين مع هذا لم يستجيبوا كثيراً لهذه الحضارة ..

وفي زمن حروب الاسكندر تواجه الشعبان . وكان كل منهما يمثل عالمـاً مستقلاً وحضارة مختلفة . ولم تستطع جدارة البطل كما لم يتوصل نبله ان يشيدا جسراً دائماً بينهما .